

السفسطائيون

للاستاذ زكي نجيب محمود

.... اذن فقد كانت آسيا الصغرى مهداً تقلب فيه الوريد الجديد وظل حيناً يتعثر، حتى استقام بعد لآي على قدمين لم ترسخا الا في عسر شديد، فقد حدثك في فصل سابق أن العقل الناشئ لم يكذب يستيقن من وجوده، حتى أرسل البصر يستطلع أصل الوجود، وجاهد ما استطاع لكي يصل في تعليقه الى هذا معقول، فالتمس في الماء والهواء، ولكنه أفلس، ثم عدل عن مادة الكون الى جوهره ومعناه، فأفلس كذلك، وهكذا لبث اليافع في عثائه، يستقيم ليكبو، ويكبو ليستقيم، حتى كانت غارة الفرس الداهية، التي اجتاحت المستعمرة اليونانية في آسيا الصغرى، ففرع الفلاسفة ربها، وهاموا في فجاج الارض فرادى يحملون قيس الفكر، حتى انتهى طرف منهم الى بلاد اليونان ...

أنظر انفاى بلاد اليونان قد صاغها الله يدا مبسوطه، كأنما تريد أن تلقف بأصابعها الناتئة في مياه البحر حضارة القدماء من الجنوب والشرق، بسطت كفها فتناولت من مصر مدنية كانت حيث قد بلغت شأواً بعيداً، واستعارت من بابل وأشور وآسيا الصغرى شذرات متثورة من العلم والحكمة .. وقد أراد الله لتلك

مثلاً اشتراط لذلك دعوة اخوانه جميعاً وان لم يعرفهم جميعهم الداعي لقد كان يجب ان يعيش بين القلوب لا بين الاجساد . ما عاش مختار لنفسه، بل عاش للفن . ان كل ما زاره اليوم، مصر من مجهود قى، هو في الحقيقة اثر من آثاره — فقد كان المحرك لارسال البعثات الفنية، وفي فتح مدرسة الفنون الجميلة، وفي اقامة المعارض والاشادة بذكر الفنانين، كان يحمل بايجاد ادارة للفنون تحت رياسة وكيل ثان للعارف علي نسق النظام المتبع في فرنسا

وبالاختصار كان مختار روح الفن في مصر نفعه في جميع المصريين حتى نطقوا باسمه جميعاً، وصارت « نهضة مصر » عنواناً لكل صاحب مهنة وفن في القاهرة، وفي جميع القرى المصرية، فكفاه تمجيدها تمجيده ليوم من ايام مصر .

ساحى كمال

توت عنخ آمون، فدققوا النظر من جديد في ذلك الفن المصري القديم ونحو نحوه، وصاروا لا يفتنون في التمثيل على ما يرون بعينهم، انما عمدوا الى الرمز في النحت والتصوير لترسل تخيلك في البحث عما يرمزون، فلا يقف نظرك على تفاصيل الجسم أو الرداء بل يلجئك الفنان الى البحث عما يريد من معنى، وليس من السهل الوصول الى ما يريد والوقوف عليه . ويمتاز الفنان الماهر بأن يقدم لك ما تشاء فيه كل يوم جديداً . ألم يتحدثنا الصديق الدكتور طه حسين بأن هذا ما نحا نحوه بعض شعراء الفرنسيين ؟ عاش مختار في هذا الجو وأدرك سر الاقدمين المصريين، فعمد بالمعاول الى رسم الطريق للجددين، وبعث من جديد فنا كان يشعر أنه يفيض من حبه لمصر، ففتح على قناراته (القاهرة) و (الفلاحة) و (بنت الشلال) .

أنظر الى تلك القاهرة تحتال في رداها تجد الملاك الطاهر في حلم النائم لا تقتر تنظر اليها، ولا يرتد نظرك عنها، ثم تعاودك طيفا تحار في فهم روحها ولا تجسر أن تبادرها بالسؤال .

أما بائعة الجبن فانك تراها في صور الاقدمين، لكنها لا تحمل شيئاً بل ترمز الى الروح، وهي رافعة ذراعها على هذا النمط . فقد عاش مختار من قطع بائعات الجبن جميعاً، فهي رقيقة حقاً لكنه اعطاها الصلابة البرنزية وتركها للخلود ...

رأى مختار مثلاً الشيخ البلد في دار الآثار المصرية، فكان جديراً بان يصنع مثالا لامرأته، انظر اليها تجد جمالاً وقادراً يجلبان الاحترام وقوة معنوية تسحر القلب

وبنت الشلال هي تخليد بديع لمى بروح ذلك العنصر من سكان الشلال، اهتدى اليها مختار عند وادي الجرائيت فأنطقها وترجم بنشيد النيل والصحراء والشمس المحرقة والحياة الحزينة

وتلك المرأة في القبولة تجدد في دار الآثار شيئاً لها امرأة كانت تمجيد، غلب عليها النعاس امام القرن قامت . هي صورة لبعث القديم واحياء الجديد من الفن

عاش مختار سنين في باريس، وما كان يأمل في الحياة بقدر ما كان يأمل أن يكون له بيت في قرية مصرية بين تلك المصريات ويعبر عنهن بالملكات اللاتي أحب حركاتهن وسكناتهن، يحملن الماء وغير الماء، يأكلن مما يجلبهن أكله، مرتدياً ذلك السروال الواسع الاكمام

وما كان يلهي له التسع بأي شيء وحيداً، فان دعاه داع الى الغداء

وجنوب إيطاليا . فلكل تذكر أنى وقت بك فى تتبع السلسلة الفكرية عند المذهب الذرى ، الذى رد الكون الى ذرات دقيقة تجتمع وتأتلف فتكون هذا النوع أو ذاك ، ولكنك تستطيع أن تدال أشياء ذلك المذهب ، مالمذى يبرر عقلا أن تجتمع طائفة معينة من الذرات فى صورة مادون صورة أخرى ؟ خذ الانسان مثلا ، فهو عندهم مجموعة ذرية لا أكثر ولا أقل ، فهل تظن أن من اليسير على عقل منطقي أن يقنع بأن تلك الذرات الجامدة تأتلف بطريق المصادفة العيا ، فتنتج ملايين الأفراد على غرار واحد وفى هذه الدقة من التنسيق ؟ كلا ! يستحيل ألا يكون وراء هذه الذرات المادية عقل مدبر حكيم ، يملك تصرفها فيجمع بينها ثم يفرق جمعها تبعا لما يقتضيه قصد معين وهدف منشود . . . فى الكون اذن عنصران متميزان : مادة ترى بالبصر وتحس بالأيدي ، وعقل خفى يكن وراء أستار المادة ، يسلك بها ماشاء من سبل ، وهو حكيم رشيد ، يعرف أين يسير بمادته فى سبيل سواء . . . هذا ماحله انكسجوراس الى أثينا ، فبدأت الفلسفة اذن طورا جديدا . . . لم يعد العقل يكتس أصل الكون وعكس في ماء ولا هوا ، ولم يعد يلتمسه فى قاعدة رياضية ، أو فى ذرات تفرق وتلتق على غير هدى ، بل جاوز العقل فى جولته حدود الطبيعة المحسة ، وضرب فيما وراءها ، واذن فما أجددنا أن نضع انكسجوراس فى مرتبة من تاريخ الفلسفة عالية رفيعة اذا كنا نفرق بين مراتب رجالها . فهو بين الفلاسفة أو ل من رأى فى الكون رأيا ناضجا ، يصدر عن رشد ووعى ، بالقياس الى اسلافه الذين لم ترد أقوالهم على سداجة الطفولة الحائلة

ترى من هذا كله أن العقل قد لبث طويلا يبحث فى حقيقة الكون فاتسبى الى نتائج متافرة متباعدة ، وتشعبت عليه السبل وكثرت الحلول ، فكان طبيعا أن يقف منها جميعا موقف الشك والريبة فكلها حق ان شئت . وكلها باطل ان شئت ، فلنطوح بها شيئا نذر وه الرياح ، ولنترك الكون وما يحوى لانظره بالبحث الآن ، وليكن موضوع بحثنا منذ اليوم هو الانسان ، فهو سيد الأشياء ، وهو وحده الفيصل الحكم ازامه المذاهب الفكرية ، يعتق منها ما يشاء ، وي طرح ما يشاء فى زوايا الاهمال . وليس لأحد سلطان على أحد فى ان يوحى اليه بفكرة أو رأي ، فما تراه انت حقا فهو حق ، وما تراه

البلاد اليونانية أن تكون وعرة المسالك ملتوية الاديم ، تنهض على صدرها الحزون وترتفع الجبال ، فانحصرت بين شغابها طائفة من الاودية ، كانت فى عزتها كالأوكار ، نشأت فى أكنافها مدن متفرقة ، ليس الى اتصالها سبيل حين ميسور ، فسلكت كل واحدة منها طريقا معينها فى الدين والثقافة ونظام الحكم . ولبت تلك المدائن متنافرة متناكرة ، لا تلتق فى وحدة قومية ، اللهم الا اذا أغار عليها مغير يطمع منها فى غزو وسلطان . وذلك ما حدث عند ما جاءت من الشرق جيوش الفرس يقودها عظيم دارا ، عندئذ انعقدت الحناصر على التحالف بين اثنتين من تلك المدن اليونانية ، كانتا أشدها بأسا ، وأوفرها قوة وأبلغها رقا وتقدما ، تحالفتا على أن تعد إحداهما الجيش ، والاخرى تهيم الاسطول ، ومن ذا تظن أن ينهض تهيمه أسطول ضد قوى غير الاثنينين ، الذين لهم من موقعهم صلة وثيقة بالملاحاة وزكوب الموج ، وأما الأخرى - اسبرطة - التى عرف رجالها بالأس والقوة ، فقد جهزت جيش الدفاع .

وقعت الحرب واتصر اليونان ، فعاد الاثينيون بأسطولهم وقد اتخذوه بعدئذ أداة للتجارة ، ظلت تجوب جواربه المنشآت فى جوف البحر الأبيض ، تحمل منها والى التجارة من كل صوب ، وما هى الا أن تزخر أثينا بتلك التجارة الصادرة الواردة ، وبعلاذ كرها فى الاسواق ، وتصبح مركزا تلتقى عنده الأقوام والاجناس ، لكل قوم دينه ، ولكل جنس ثقافته . واذا بهذه الألوان المختلفة يضطرب بعضها فى بعض ، ويخالط بعضها بعضا ، فتتمزج الثقافات جميعا والديانات جميعا فى صعيد واحد ، ويكون لذلك كله نتيجة محتمة ، هى المقارنة والتحليل ، وبالتالي نشأة الفكر الصحيح . وهذا بدىهى معقول ، فالمذاهب المتضاربة ينسخ بعضها بعضا ، وتندنو بالناس الى الارتباب والشك فيها جميعا

واذن فقد كانت أثينا ، عند ما طوح القدر بذلك القبس الخافت من آسيا الصغرى بيئة صالحة وتربة خصبة ، يستطيع أن يستقر فى أرضها ذلك الشعاع الضئيل ، حتى اذا ما امتد به الزمان قليلا ، سطع لامعا وهاجا فى عهد الاساطين الثلاث : سقراط وافلاطون وارسطو

جئنا انكسجوراس الى أثينا تلك البذرة الاولى للتفكير الفلسفى وقد كانت زليدة الافكار السابقة التى نشأت فى آسيا الصغرى

أهلها له... وهب أنك تستطيع أن تصل إلى معرفة مطابقة الواقع فإنه يستحيل عليك أن تنقل هذه المعرفة للآخرين، لأنك مضطر إلى التمييز عنها في كلمات، ولا أحب في الدنيا أحدا يشك في أن اللفظ شيء. والمعرفة نفسها شيء آخر. وإذن فهما قلبت الأمر على وجوهه فنصل إلى النتيجة واحدة، وهي أنه لا يمكن أن يكون في الوجود حقيقة موضوعية مجردة يجمع عليها، بل الحقائق ذاتية تختلف باختلاف الأشخاص، وإذن فمن البعث أن يستمع فرد إلى رأي فرد آخر، ولا يجوز لك أن تصني لفرد ما تراه وتشعر به، ولا تختار من كل ذلك إلا ما تصيب عنده نفعاً

أجمع السفسطائيون على ذلك، ولكنهم ذهبوا في السياسة مذهبين: فريق يدعو إلى العودة إلى أحضان الطبيعة واستيعابها فيما يجب أن يرسم للجماعة من نظام وقانون — كما فعل روسو فيما بعد — ولما كانت الطبيعة عندهم تسوى بين الأفراد، لا ترفع أحداً ولا تخفض أحداً، إذن فسحقاً لهذه المدنية التي تجعل من الناس طبقات بعضها فوق بعض، فذلك نظام مقنن دخیل على طبيعة الإنسان جدير بنا أن ننزهه في جراءة حازمة، ولا ينبغي لنا أن نأبه لهذا القانون الذي توافقت عليه الجماعة، لأنه من وضع القوى، فرضه على الضعيف فرضاً لا يبرره حق ولا تميزه عدالة، إنما القانون العادل هو الذي ينزل الأفراد منزلة سواء، ومعنى ذلك أن تكون الديمقراطية مثلاً أعلى للحكم.

وأما الفريق الآخر، فقد دعا إلى النقيض — كما فعل نيتشه فيما بعد — الست ترى من الناس فيلسوفاً عبثياً بجانب النبي الأبله، ليس منهم الضعيف الخائر إلى جانب القوى ذي العود الصلب؟ إذن لم تسو الطبيعة بين الأفراد، كلا ولا الأخلاق ابتكرها القوى إنما هي على النقيض من ذلك، خدعة أوحى بها الضعيف ليعمد من قوة القوى وسلطانه... ولا يتردد هذا الفريق في الدعوة إلى الاستقراطية في الحكم، وهذا المحرم العنيف على الديمقراطية وحكمها يصور لنا نهوض جماعة من الأغنياء الأذكياء، أرادوا أن يقتصبوا من الشعب الثمور والسلطان، بحجة أفلاس في إدارة البلاد فأنتم تستطيع أن تسخر من مذهب السفسطائيين، ومن حقك أن تهملهم إهمالاً وان تنبذهم بذلتوة، لأنه خطر على الاجتماع، خطر على الأخلاق، خطر على العقائد، خطر على كل نواحي الحياة الإذنية، لأن قوام هذه اليقين والایمان في مجموعة من الحقائق التي تفرس على الناس فرضاً، سواء صادفت هوى من

أنت باطلا فهو باطل... مزتلج فيه النفع لشخصك فهو الفضيحة العليا وكل ما يناقض هواك فهو رذيلة وشر، لا تأبه بتقاليد، ولا تصدق الناس فيما يذهبون إليه من خير وشر، فأنت ذلة وأنت مالكها، لك أن تحكم فيها بما تشاء. وتهوى... انظر! هذان رجلان يشخصان يصيرهما إلى السمع تنعند إلى خدعها ساعة الغروب فخلعت على الأفق غلالة حمر، فيفتن جمالها واحداً منها حتى يكاد يظفر راتصا مفتونا بما يرى. وأما الآخر فينظر إليها شزراً واستغافاً، بل أنه ليسهر من ضماخه، فليس تمت في الشمس جمال ولا شيء يشبه الجمال! فمن ذا يستطيع أن يفتح أحد هذين بخطأ رأيه أو بصوابه؟ ولم لا يكون كلامهما على حق؟ وإذا كانت الأهواء والميول والمشاغل متضاربة متناقضة، لا تتجمع في نزعة واحدة، ولا يمكن أن تدور رخاها حول قطب واحد، أفلا يكون شططا ذلك واعتسافاً أن تقصر تلك المجموعة المتناثرة على أن تلتقي كلها عند حقيقة واحدة؟ ومن ثوى يكون حقيقياً ينصب الحكم بيني وبينك فيما نحن فيه مختلفان؟ كلا! ليس تمت حقيقة واحدة، بل الحقائق في الدنيا بقدر ما يضطرب فيها من أفراد البشر، فيذهب كل فرد مذهبه في الكون وفي ظواهر الكون، ولا يتخفين بأسامن قد أو تخرج لما يذهب إليه، فهو لا يقل حقاً وصواباً فيما يرى عن أي رجل آخر، بالغاً ما يبلغ من العبقرية والنبوغ... تلك هي العقيدة التي حملتها طائفة من الناس في أرض اليونان، وأخذت تجوب بها الانحاء والأرجاء، تذهبها في الناس في ذلاقة وطلاقة وحسن بيان، حتى اجتمع حولهم طوائف الشباب جميعاً، يتلقون عليهم ذلك الشك، ويتعلمون عنهم طرائق التشكيك وأساليب المحاور والمداورة في الخطابة والحوار لقاء أجر يعظم ويعتول تبعاً لما يتلقى الشاب من عدد الدروس... وإنما أعني بتلك الطائفة جماعة السفسطائيين، ولم يكن ذلك الاسم عندئذ يحمل ما يحمل اليوم من تحقير، بل هم جماعة أحبوا الحكمة كما يحبها كل فيلسوف، لولا هذه الزلة التي سقطوا فيها فأسقطت من قدرهم، وهي تقويم الحكمة بالأجر

وأبرز أولئك السفسطائيين رجال ثلاثة: بروتاغوراس وجورجياس وهياس، ولقد أنكر ثانيهما وجود الأشياء جميعاً وحتى لو فرضنا جدلاً أن تمت في الكون أشياء لها حقائق ثابتة، فلا يمكن أن نوقن بأن الصورة الذهنية التي نعرفها لتلك الأشياء مطابقة لها تماماً، فمن الجائز، بل من المرجح، بل من المؤكد أن حقيقة هذا العلم الذي نرى يتجالف في وجوه كثيرة صورته الذهنية التي